الوعي المعرفي والتنمية المستقبلية

المدرس الدكتور
كامل جاسم المرياتي
الجامعة المستنصريه- كلية الآداب

بسم الله الرحمن الرحيم
"ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين"
صدق الله العظيم

المقدمـــــة :

منذ ان وطئت اقدام ادم هذه الارض وعلى مر العصور والاجيال كان هـــاجس اعمار الارض واستثمار مواردها وتنمية امكاناتها طاغيا على تفكير الإنسان ومـــستحوذا على اغلب محاور اهتماماته فخطط واخفق حينا واصاب حينا كي يحقق ما يـــصبو اليـــه وكانت النتائج المرغوبة تتحدد غالبا في التحكم بالبيئة وتحسين مستوى المعيشه وتطـــوير وسائل الانتاج ورفع مستويات التقدم الاقتصادي ولذلك طغى مفهوم التنميـــة الاقتـــصادية على ادبيات التنمية لاسيما بعد تدني فرص الاجيال اللاحقة في الحصول على المـــستوى المطلوب من القدرة الإنتاجية وتحقيق مستوى لائق من المعيشة .

غير ان مشكلات الفقر والبطالة وما يترتب عليها من اثار سلبيه لم تكن لتطـــال شروط الحياة الاقتصادية فقط بل امتدت لتشمل مفردات الحياة بكل صـــورها واشـــكالها وابعادها وشروط خيارات الناس ووعيهم بمتطلبات الحيـــاة الاجتماعيـــة ومفـــاهيم القـــيم والمعتقدات الاجتماعية الامر الذي ترتب عليه اتساع مفهوم التنميـــة ليـــشمل متغيـــرات جديدة ومنها ألمحافظة على الموارد البيئيه ومكافحة عوامل التدهور البيئي وتبني انمـــاط جديده من القيم والعلاقات الاجتماعية ومستويات الوعي الاجتماعي وكل ما ينطوي عليه مفهوم البيئه الاجتماعية من امكانات عمليه وادراك لشمولية ابعاد المجتمـــع ومكونـــات النسيج الاجتماعي بكل ما يتضمنه ذلك النسيج من علاقات وتفاعلات ، ولهـــذا الـــسبب انطلق البعض من الكتاب لبيان العلاقة بين الوعي الاجتماعي والتنميـــة البـــشرية بكـــل ابعادها ومضامينها .

هــدف البحــث

انطلاقا مما تقدم فان سعي بحثنا يتوجه نحو تحليل مــضامين الــوعي بابعــاده المعرفية والاجتماعية والنفسية، والوقوف على اختلاف مستويات الوعي الاجتماعي عنــد الافراد والجماعات والشرائح والطبقات الاجتماعية والفكرية ، وعلاقة تلــك المــستويات بمفهوم التنمية البشرية المستدامة سعيا لتأكيد الاهتمام بالغايات الاجتماعية وتأكيــد قــيم الحرية والعقل واحترام حقوق الإنسان وتمكينهم من المشاركة في رسم مستقبل افــضل ، ذلك ان الوعي الاجتماعي بكل مستوياته وعناصره لابد ان يكون هدفا من اهداف التنمية البشرية وغاية لها.

النمو المعرفي والعقلي :

النمو العقلي للانسان شبكة معقدة من النضج البــايولوجي وخبــرات الــتعلم . ويتطلب الوقوف على تلك الشبكة وعلى آليات النمو المعرفي الرجوع الى بعض الافكــار والنظريات التي سادت حقول علم النفس، وخاصة تلك التي عالجــت موضــوع النــضج والنمو البايولوجي ، وتلك التي لها علاقة بآليات التعليم .

غير ان التطرق لكل تلك الآراء والنظريات أمر غير يــسير نظريــاً لتــشعب واختلاف رؤى المفكرين واختلاف وجهات نظرهم وتقاطعها في بعض الاحيان ، فــضلاً عن ان هذا جهد يقع خارج سياق سعينا.ولكننا نستطيع استثمار مساحة صغيرة للاشــارة الى بعض افكار برونر Bruner التي ضمنها نظريته عن النمو المعرفي،والتي يرى فيها ان اللغة مفتاح النمو المعرفي ، لأن الفرد يستطيع من خلالها ان يفهم تصورات الاخرين للعالم الخارجي وأن ينقل من خلالها تصوراته أليهم . ذلك ان عمليات النمــو المعرفــي تتضمن قدرة متزايدة على مخاطبة الذات للآخرين عبر وسيط رمزي كالرموز اللغوية او غير اللغوية ، فضلاً عن ان آلية النمو المعرفي تعتمد على تطوير عملية تخزين داخليــة ومنظومة معالجة معلومات(Information Processing System) تمكن الفــرد مــن تمثيل العالم الواقعي [١]

ويبدو ان الاسهاب في هذا المنحى سيدفع بالبحث نحو حقول علم النفس وآليات تشكل الصورة الذهنية ونظريات النمو والتعلم . وتلك تفاصيل أرى ان ندع بحثها لمتخصــصين

في مجالات النفس والتربية ، غير ان سعينا نحو تقصي الصلة بين وجود الإنسان المادي ووجوده الفكري ، يفرض علينا الاسترشاد ببعض مدارس علم النفس نظراً للصلة الوثيقة بين البعد النفسي والبعد العضوي للانسان،رغم اختلاف رؤى المفكرين بشأن تلك الصلة .

ولعل التقاطع الكبير بين السلوكيين والاستبطانيون سيكون المحطة الاولى التي تفرض علينا التوقف عندها .

يرى جون واطسن رائد المدرسة السلوكية القديمة في علم النفس ، ان ميدان علم النفس الإنساني يتمثل في سلوك الكائن البشري لا في وعيه . لأن الوعي لا يشكل مفهوماً محدداً ولا مفهوماً قابلاً للاستعمال . ولذلك فأن الاعتقاد بوجود الوعي سيقود بنا الى الخرافة والسحر .

اما وليم جيمس رائد مدرسة الاستبطان في علم النفس فأنه يرى في علم النفس مجالاً لوصف وتفسير حالات الوعي .

وهكذا يتضح لنا من خلال هذه الاطلالة السريعة ، ان مفهوم الوعي يشكل نقطة الخلاف الرئيسية بين المدرستين . ذلك ان المدرسة السلوكية ترى ان علم النفس الاستبطاني ينطلق في دعواه من فلسفة (ديكارت) ومبدأ الثنائية ، الذي يرى ان لكل فرد روحاً وجسداً . ولأن الروح مبدأ ومفهوم غير قابل للملاحظة والتجريب ، فأن مدرسة الاستبطان مضطرة الى استخدام الاستبطان كمنهج دراسي ، الامر الذي أبعد تلك المدرسة عن الموضوعية في تعاملاتها ، في وقت تستند فيه كل العلوم على اسس موضوعية[٢]

ويبدو أننا سنضطر أسفين لتجاوز السيد واطسن ، لاننا بخلاف هذا سننحو منهجاً سايكولوجياً صرفاً يبعدنا عن الخط السوسيولوجي . ثم أننا سنبتعد عن غرضنا الدراسي لفهم ودراسة ظاهرة الوعي .

الفرد والمجتمع :

لم يكن اوكست كومت مخطئاً عندما رأى ان على علم الاجتماع ان لا يتجاوز التاريخ ، لانه عند ذاك سوف لا يصبح علماً للاجتماع .

والواقع ان أعتماد موقف واضح محدد في مسائل تخص الإنسان والمجتمع دون الاسترشاد بجذور الاختلافات الفكرية ، لا يعد أمراً مقبولاً من الناحية العلمية .

على ان الاستناد على التاريخ واستخدام المنهج العلمي يفرض على الباحث السوسيولوجي الحيطة والحذر ومراعاة أمرين :

١- عدم الانجرار وراء التيار التاريخي الى مدى يبدو وكأن هذا التيار هدف للبحث .

٢- عدم أعتماد صورة التاريخ او الحادثة التاريخية دون توظيف لها لهدف البحث ، وفي ضوء ارتباطها بالواقع الحالي .

ومع ذلك فأن علاقة كعلاقة الفرد بالمجتمع حرية بالتقصي والدراسة ، لمعرفة أسس الاختلافات الفكرية ومبررات تلك الاختلافات والحجج المنطقية ، لعلاقة ذاك بموضوع الوعي والوجود .

وسواء أكان الفرد اسبق في الوجود من المجتمع كما يرى ارسطو واتباعه ، او ان الفرد كائن بايولوجي اكتسب انسانيته واجتماعيته بالتطبيع ، ولا وجود لشخص دون مجتمع – كما رأى أفلاطون- فأن مقولة الوعي والوجود وثيقة الصلة بكلا التيارين، لارتباطها بمفهوم العقل والوعي الجمعي، وتعامل الفريقين مع ذلك المفهوم وما في حكمه من مواضيع .

فأنصار الفرد (الارسطيون) لا يقرون اصلاً بمفاهيم العقل الجمعي والسلوك الجمعي والضمير الجمعي، ويعتقدون ان مثل تلك المفاهيم ما هي الا خرافات لا وجود لها بالمعنى الاجتماعي ، لان المجتمع بنية خيالية لا صحة لوجودها ، بل ان السلوك الجمعي ليس الا مجموع سلوك الافراد في المجتمع .

اما (الافلاطونيون)،فأنهم ركزوا في طروحاتهم على ظهور صفات اجتماعية لا يمكن وجودها أو ظهورها في الفرد المنعزل المستقل عن الجماعة . فالمجتمع، – كما يقول دوركهايم – يتكون من مجموع الافراد . ولكن هذا المجتمع يختلف في طبيعته عن واقع الافراد المكونيين له ، ذلك ان الخصائص الاجتماعية المكونة للمجتمع مختلفة عن الحقائق السايكولوجية ولا يمكن اختزالها الى ابعاد سايكولوجية او حقائق سلوكية [٣] .

ومهما يكن من أمر فأن لنا ان نتخذ خطاً وسطاً فنقرر وجود سلوك فردي وآخر اجتماعي . ولكل منهما خصائص مغايرة وطابع مختلف ، ولا يمكن ان يظهر ذلك الطابع السلوكي الا في حدوث ذلك النمط من السلوك ، فليس تجمع الافراد مجموع عددهم

الحسابي ، لان لهذا التجمع خواص تغاير خواص كل فرد بمفـرده ، ولا يمكـن لتلـك الخواص ان تظهر الا بتجمع الافراد .

ولان الفرد تركيب والمجتمع تركيب مغاير ، ولان الوعي الفـردي غيـر الـوعي الاجتماعي ، فأن الوعي في بعده العام يمثل حلقة الوصل بين الكيانات الفردية والتراكيب الاجتماعية ، وهو الركيزة التي نفسر من خلالها انتقال الفرد نحو استيعاب الابعاد الثقافية وتمثل التجريدات الرمزية عبر بوابة الاجتماع البشري . ومثل تلك الانتقالة تشكل حجـر الاساس لأي بناء اجتماعي، وتحتاج الى جهود ووسائل نفسية واجتماعيـة تتمثـل فـي اعراف وتراكيب مؤسسية وأنساق معرفية.

فالصلة بين الفرد والمجتمع صله طوعية في بعض جوانبها وجبرية فـي جوانـب اخرى، وهذا يتطلب اعادة صياغة السلوك الفردي وتأهيل الفرد سلوكياً للنظام الاجتماعي عبر آليات من انساق معرفية وتنظيمات مؤسسية يقع على عاتقها تنفيذ تلك المتطلبات .

وهكذا فأن (الهدف الرئيسي للمعرفة النفسية الاجتماعية ايجاد ركيزة وسطية يستطيع من خلالها كل من المجتمع وافراده الاعتماد عليها في رسم خطوط سلوك يوفـق بـين المجتمع والتزاماته من جهة وبين الفرد ورغباته من جهة ثانية) (٤) .

ولعلنا نتوافق هنا مع مقولة (ماكس فيبر) الشهيرة (ان العقل يكون اجتماعياً في معناه الذاتي عندما يأخذ في اعتباره سلوك الاخرين ويكون بذلك موجهاً في حدوثه).

فالسلوك الاجتماعي والظاهرة الاجتماعية لا يمكـن فهمهـا الا علـى مـستويين . المستوى الاول مستوى المعنى الذاتي للافراد انفسهم . اما المستوى الثاني فهو ان نفهـم الفعل الاجتماعي بين الجماعات والافراد . ولكي نفهم عمل الفرد واعماله او سلوكه على المستوى الاول لابد من النظر الى دوافع الفرد ونواياه واهتماماته والمعاني التي يعطيهـا لافعاله والتي تكمن خلف سلوكه.

وبنفس الطريقة لابد من النظر الى النوايا والدوافع والاسباب والاهتمامـات التـي تكمن وراء سلوك الجماعة التي يعتبر الفرد عضواً فيها (٥) .

الوعي والوجود :

لقد انسحبت الاختلافات الفكرية على تعامل الفرقاء مع ظـواهر الكـون والطبيعـة والمجتمع، وعلى النظرة للعلاقة بين كيان الإنسان وادراكه وتصوراته . لـذلك شـكلت

مسألة العلاقة بين الوعي والوجود نقطة خلاف جوهرية تمحورت حول اسبقية الوجـــود على الوعي او اسبقية الوعي على الوجـود، وتبعية احدهما للاخر اسقاطاً وانعكاساً .

وكانت البيئة الطبيعية محور خلاف ايضاً أنطلق من أعتبارها من قبل البعض جزءاً من الوعي الاجتماعي ، فيما أخرجها بعض آخر من مضمون الوعي الاجتماعي ، معتبراً ان الوعي بالطبيعة شيء لا علاقة له بالوعي الاجتماعي . هذا الى جانب ما هو موجود اصلاً من اختلافات حول معاني وابعاد مفهوم الوعي .

ان اول ما تجدر الاشارة اليه عند ذكر مقولة الوعي، ان هذه المقولة تـــرتبط غالبـــاً بالفكر الماركسي رغم انها أسبق في الاستخدام من الفكر الماركسي ذاتـــه . وذلـــك لأن كارل ماركس كان أول من وجه الاذهان نحـــو مفهـــوم الـــوعي الطبقـــي ودور طبقـــة البروليتاريا في ايقاظ الشعور الطبقي للجموع العماليـــة، وتنـــامي شـــعورها بالتماســـك الداخلي، والتوحد لمحاربة الاستغلال البرجوازي الذي تتعرض له الطبقة الكادحة في ظل وجود النظام الرأسمالي، وسعيها لتحقيق طموحات واهداف اعضائها نفسياً واجتماعياً .

ورغم ان الفكر الوظيفي والليبرالي عموماً لم يعنى بمفهوم الوعي بدرجـــة تـــساعد على استجلاء ابعاد هذا المفهوم ، إلا ان أهم نقطة خلافية بين الماركـــسين والـــوظيفيين تتمثل فيما إثاره ماركس حول اسبقية الوجود على الوعي والعلاقة بين الوعي والوجود .

فالليبراليون يذهبون الى ان الوعي أسبق من الوجود ، بينمـــا يـــرى المـــاديون ان الاصل هو الطبيعة، وان الطبيعة المادية موجودة بشكل مستقل عن الوعي وانها المصدر الوحيد لكل الاحاسيس والتصورات . ولذلك فأن الوعي الاجتماعي يتغير بتغير الوجـــود الاجتماعي ، لان الوعي أنما يشكل الافكار والنظريات التي نشأت عن الإنـــسان نتيجـــة عملية انعكاس للوسط المحيط في البنية العقلية .

ولم يقف الخلاف عند هذه النقطة فقط ، فقد أمتد حتى بين انصار المذهب الواحـــد ، اذ ذهب بعضهم الى ان الوعي الاجتماعي يعني فقط انعكاس الوجود الاجتماعي بواسطة الوعي ، ولذلك فأن الوعي بالطبيعة لا يدخل ضمن مفهوم الوعي الاجتمـــاعي، ليبقـــى الوعي الاجتماعي محصوراً بالبناء الاجتماعي . فيما تطرف بعض آخر فحصر الـــوعي الاجتماعي في العلاقات الانتاجية فقط باعتبارها محور وجوهر الوجود الاجتماعي [٦] .

الوعي الاجتماعي :

نتيجة للتداخل في دلالات مفهوم الوعي ، فقد استخدم المفهوم بمعاني ومقاصد مختلفة . كما الحقت به صفات ونعوت ذات دلالات متغايرة .

والملاحظة التي تفرض نفسها ان الكثير من الكتاب يتجاوز الاشارة في حديثة عن تحديد معنى محدد لمفهوم الوعي دون ألحاق نعت اوصفه ملحقة . وربما يعود هذا الى أرتباط المفهوم بتوجهات ايديولوجية وفكرية،وألتصاق صفة الطبقية أو المقطعية بالوعي . وهي دلالة كان كارل ماركس اول من استخدمها عندما اشار لمفهوم الوعي الطبقي .

غير ان مراجعة ادبيات الخطاب السيوسيولوجي، واستعراض أستخدامات المصطلح الغالبة ترينا ثلاثة استخدامات لمفهوم الوعي الاجتماعي .

الاستخدام الاول ركز على الصفة الجمعية (الوعي الجمعي Collective)، فيما استعمل الاستخدام الثاني في الاشارة الى الصفة الاجتماعية (الوعي الاجتماعي Social)، اما الاستخدام الثالث فقد غلبت عليه صفة الجماعة (Group) في اشارة الى الوعي الجماعي، (بفتح الميم) .

ولعل الاستخدام الاخير هو الاقرب الى الاستخدام المقطعي او الجهوي او النوعي فيقال مثلاً،الوعي(الطبقي،السياسي،المعرفي،الصحي،البيئي،الطلابي،الفني،الزائف،... الخ)

فالوعي الجماعي بمعناه العام (نسبة الى الجماعة) مفهوم يشير الى اسقاط ذات جماعة معينة على الكون والمواضيع والحقائق.وهذا الاسقاط ينطلق من شعور ذاتي جماعي (نحنوي Weness) وتصورات ذهنية للجماعة تعكس رؤى الافراد الذين لهم صلة بالجماعة بشكل عام .

وليس ذو اهمية هنا ان تكون صلة الافراد بالجماعة صلة عضوية او فكرية، كما ليس ذو فرق ايضاً ان يكون ارتباط الفرد بالجماعة المرجعية انتماءاً أم انتساباً .

ويبدو واضحاً ان تصورنا لمفهوم الوعي الجماعي هنا يشير الى صلة كبيرة بين مفهوم الوعي ومفهوم الايديولوجيا . غير ان الدقة في الاستخدام تشير الى ان الفرق بين المفهومين انما يكمن في ان الفكر الايديولوجي برنامج عمل فكري ينطلق لتحقيق اهداف وغايات محددة مرسومة تهدف لخلق وعي مقصود. بينما يكون الوعي الجماعي تصور ذهني ينشأ تلقائياً وليس مقصوداً، كما انه ليس مبرمجاً ، ولذلك فهو شعور عفوي .

وعموماً فأن مصطلح الوعي الجماعي يستخدم في اشارة للمشاعر والتصورات التي تمييز جماعة او شريحة محددة عن جماعة اخرى . وقد تنتظم تلك الجماعة انتظاماً فكرياً او مادياً ضمن قطاع او شريحة او فئة او جهة او موقع جغرافي او نشاط معين لتميزها عن غيرها من الانتظامات ضمن مجتمع اوسع . ولذلك فان لهذه الجماعة ادواراً ووظائف وطموحات قد تغاير ما لغيرها من الجماعات، دون ان يعني ذلك وجود تقاطع بالضرورة او عدم وجود مثل عليا او اهداف مشتركة.

وليس هناك أدنى شك في ان الوعي الفردي غير الوعي الجماعي فلكل منهما ظروف تكوينية مختلفة.

ويبدو ان هناك تشابهاً في منطلقات فكرة الوعي وفكرة العصبية التي استند اليها الفكر الخلدوني والتي تشد رباط الجماعة(٧) .

ونستطيع ان نقارن هنا بين مقولة الوعي الطبقي لكارل ماركس التي تستمد اصولها من التماسك الطبقي، ومقولة العصبية لابن خلدون والتي تستمد اصولها من روابط الدم وصلات القربى والرحم .

وسواء اعتمدنا مفهوم الوعي الاجتماعي، أم استبدلناه بمفهوم الوعي الجماعي، فأن كلاهما يعبر عن ذات الاسس والمنطلقات مع كون الاول اوسع واشمل، لان وعي الجماعي يتضمن دلالات جزئية او مقطعية .

ولعلنا نستطيع القول ان الوعي الاجتماعي اسقاط ينطلق من تصورات مشتركة للافراد ، بينما يستند وعي الجماعة على تصورات متشابهة .

وبمعنى آخر فأن ذات الجماعة اكثر انسجاماً وتوافقاً في كينونتها من الذات الاجتماعية .

اما الغالب في الاستخدام المتداخل لمعاني مفهوم الوعي فيبدو في عدم التميز بين مفهوم الوعي الاجتماعي ومفهوم الوعي الجمعي كمرادفين لذات المعنى . ويظهر هذا التداخل واضحاً في الكثير من المعاجم وقواميس العلوم الاجتماعية والسلوكية حيث يشير بعضها ان الوعي الاجتماعي او الجمعي هو (وعي الافراد بالعلاقات الاجتماعية التي تربطهم ببعضهم ، ووعيهم بتجاربهم المشتركة . وقد ينمو هذا الشعور نحو الاشتراك في تحمل مسؤولية النهوض بمجتمعاتهم)(٨) .

ودون الانحياز لمعنى دون آخر سلفاً فأننا سنناقش الموقف الفكري في هذا الموضوع جاهدين على الاستدلال ببعض الرؤى الفكرية للتمثيل والاستشهاد كل في موضعه .

ولعلنا نستطيع الفصل بين دلالات هذه الثنائية بالاحتكام الى معاني كل من السلوك الجمعي والسلوك الاجتماعي استناداً الى اراء المتخصصين بذاك الحقل .

لقد اشار الدكتور حاتم الكعبي في معرض تميزه بين السلوكين – رغم اقراره باعتباطية استخدام تعبير السلوك الجمعي لظواهر دون اخرى – ان السلوك الجمعي سلوك يغلب عليه التغير والتحول لا الثبوت والاستقرار (Stability)، ويسيطر عليه التحلل ، وتغلب عليه المفاجئات غير المتوقعة (Uncertainty) . ومن ثم فأن هذا النوع من السلوك يتعذر فيه التنبؤ عن الاحداث المستقبلية[٩] . اما السلوك الاجتماعي فأنه سلوك قابل للتنبؤ لانه ثابت ومستقر نسبياً ، وان تغيراته تتم بانتظام يسمح ببناء افكار وتوقعات عن احداث مستقبلية . وتأسيساً على هذا، ولأن الوعي سلوك عقلي، فأننا نستطيع ان نقرر ان الوعي الجمعي وعي عفوي مؤقت، وشعور انفعالي يزول بزوال المؤثرات . ولذلك فهو شعور يصاحب حالات التوترات الجمعية والانفعالات العاطفية والارهاصات النفسية التي يتعرض لها الجمهور في مستوى تجمعهم بتأثير حوادث طارئة .

ودون شك فأن هذا النوع من الوعي لابد ان تثيره احداث طارئة وتحركه مؤثرات ذات جذور كامنة في الذات المشتركة. بمعنى اننا أمام حالة نفسية جمعية تحركها عوامل اللاوعي او اللاشعور على مستوى نشاط السلوك الفردي .

ولذلك يجوز لنا القول ان هذا المظهر من مظاهر الوعي لا تحركه الا آليات العقل الباطن او العقل اللاواعي. وان كانت تثيره دوافع عقلية عارضة او حوادث اجتماعية طارئة .

وتوترات واحباطات وخبرات تاريخية. (فالعملية الداخلية في الانا من الممكن ان تصبح شعورية)، على حد تعبير سيجموند فرويد .ولسنا بصدد غور هذا الموضوع في بحثنا هذا .

اما الوعي الاجتماعي (Social) فهو مجموعة من المشاعر والاراء العفوية التي تعكس ظروف الواقع والحياة الاجتماعية بكل ابعادها، والتي نمت تحت شعور مشترك بالانتماء، وتبلورت الى افكار ورؤى تعكس تصور الافراد للكون والحياة والواقع المحيط

، وتفسر في ذات الوقت الصلة بين العلة والمعلول ، والصلة بين المجرد والمحسوس ، وتفرق بين ما هو ضروري وما هو عارض من مواضيع واحداث .

ولذلك فأن الوعي في بعده الاجتماعي انما يشير الى اسقاط ضمني لتصورات الذهنية الاجتماعية عن الروابط والصلات والعلاقات التي تحكم الوسط والطبيعة والكون . فهو اذن انعكاس متبادل بين الذات الاجتماعية والوسط البيئي بكل مكوناته الفيزيقية وغير الفيزيقية .

ومن هنا نستطيع القول ان الوعي الاجتماعي شعور عام ثابت نسبياً . وبقدر يسمح ببناء افكار ونظريات لاستقراء واقع وحركة المجتمع والكون .

ولأن الوعي عملية انعكاس متبادل بين الإنسان والوسط ، فأنها تتضمن عمليتين متلازمتين لا يمكن الفصل بينهما (الانعكاس والاسقاط).

فالوعي انعكاس وتجسيد للوجود في الذات شكلاً ومضموناً، واسقاط للذات على الوجود عقلاً وروحاً . بمعنى ان الوعي عملية انعكاس متبادل تترافق مع عملية تشكيل (Formation) للذات الاجتماعية عبر انخفاض متواتر للذات الفردية واسقاط للذات الاجتماعية على الآخر . ولذلك فأن الوعي يتضمن أساساً واقعياً مادياً وتصوراً ذهنياً عقلياً في ذات الوقت . غير ان هذه الوحدة الواقعية الذهنية والعقلانية الباطنية وحدة متغيره قابلة للتحول عبر المراحل الزمنية المختلفة . وبالفعل فقد اشارت دراسة المأثورات التاريخية للشعوب القديمة ، ان الشعور الوطني القبلي عند تلك الشعوب يبدو في الادب الملحمي العتيق كحماس لحماية النوع البشري من الغيلان الشريرة .

وحينما فقد الاعداء الملحميون هيئة الغيلان الميثولوجية في مراحل لاحقة (الادب الملحمي الكلاسيكي) ليتحولوا الى أناس عاديون له صفات الغيلان الشريرة . تحول هذا التعبير الملحمي في ادب فترات لاحقة – متأخرة نسبياً – ليعبر عن حماية الارض الأم من الغزاة الاجانب [١٠] .

وهكذا فأن مفاهيم (العقل ، الوعي / الجماهيري) تصبح بنى معرفية وبناءات ذهنية واوساط رابطة بين الفعل المعرفي والعقل الاجتماعي . غير ان هذا لا يعني عدم امكانية استقلال تلك الأنساق استقلالاً نسبياً خارج ظروف انتاجها وتشكلها .

ان مثل هذا الفعل – عمليات النمو المعرفي على مستوى الجماعة والمجتمع –تشترط بالضرورة ظروف انتاج اجتماعية وليست فردية ، وتفاعل عناصر سوسيوثقافية، لتشكيل انماط من التصورات والتشكيلات المجتمعية التي تمنح المجتمع طابعه المرحلي، وتحـــدد في ذات الوقت طبيعة ونمط الفعل المعرفي والوعي الاجتماعي في تلك المرحلـــة، ودون ان يعني ذلك عدم فاعلية العوامل المادية والفيزيقية في ذلك الفعل . فالمثيولوجيا البدائية لم تكن تمييز بين الطبيعة والمجتمع ، فهي تصور المؤسسات الاجتماعية على نحو مطـــابق لظواهر الطبيعة . ولذلك يوصف السلوك الاجتماعي والتنظيمات العشائرية وكأنها عمليات طبيعية مطابقة لعملية خلق وتكوين الكون والطبيعة [١١] .

علم النفس والوعي :

الاتجاه النفسي في النظرية الاجتماعية اتجاه قـــديم يـــسعى لتفـــسير الظـــواهر الاجتماعية في ضوء مفاهيم التحليل النفسي وعلى وفق القوانين الـــسايكولوجية . فيعنـــى بالعلاقات الإنسانية واتجاهات الافراد وديناميات الجماعة والسلوك الجماعي والخصائص المميزة للجماعة في ضوء المفاهيم المقتبسة من الميدان النفسي .

والمدرسة السايكولوجية في علم الاجتماع التي يقف على رأسها (جبرائيل تارد) ترى ان الفرد هو الحقيقة الوحيدة الجديرة بالاهتمام، وان الظواهر الاجتماعيـــة ظـــواهر نفسية، لاننا لا نستطيع ان نفهم او نشرح أي ظاهرة أجتماعية اذا أغفلنا تحليل العمليـــات العقلية الفردية [١٢] . ولهذا السبب رفض تارد التسليم بوجـــود روح جماعيـــة او عقـــل اجتماعي،مفسراً كل نشاط ذو طبيعة جمعية بواسطة عمليات التقليد والمحاكاة والاختراع . وعلى الضد من هذه المدرسة تأتي اراء اميل دوركهايم والفرد باريتو .

ولأن الوعي مفهوم متعدد المستويات ، وهو اساس المعرفة في كـــل المـــستويات ، فقـــد اصبح محوراً للتحليل والتفسير عند كل المدارس والاتجاهات .

فالوعي على المستوى الفردي يشير الى (مجموعة الخبرات الشخصية في لحظة ما)[١٣]. بمعنى انه يدل على أدراك المرء لذاته، وادراكاً منه لما يحيط به من مـــؤثرات فيزيقيـــة وغير فيزيقية ادراكاً مباشراً .

ويضيف علم النفس لهذا الفهم ابعاداً ومظاهر اخرى . فهذا سيجموند فرويد يرى في الوعي أو الشعور كما يسميه البعض ثلاثة مظاهر يتصل بعضها بالبعض الاخر .

أ- **الوعي او الشعور الظاهر**، ويرتبط هذا المظهر بالاشياء والاحساسات التي تصل أعضاء الحس من العالم الخارجي من الانا. فهو يقع اذن في القشرة الخارجية من الأنا.

ب- اللاوعي او اللاشعور Unconsciousness والذي يتضمن الميول والرغبات المكبوتة .

ج- ما قبل الوعي او ما قبل الشعور Preconsciousness .

ويفسر فرويد الفرق بين حالة اللاوعي او اللاشعور وبين حالة ما قبل الشعور على أساس فاعلية الطاقة . فالطاقة العقلية المطلقة في الهو (اللاشعور) طاقة مطلقة . أما في الأنا (الشعور وما قبل الشعور) فهي طاقة عقلية مقيدة [١٤].

ولعلنا نستطيع الاستشهاد بالمثال التالي الذي يدلل على حالة نقص وجداني او أدراك ذهني مقيد .

((سئل قروي بسيط . ماذا تفعل لو كنت رئيساً للجمهورية. غمغم واجاب ... يا ألهي ... كيف تسألني هذا السؤال ...كيف أستطيع أنا... رئيس جمهورية ... سيد العالم أجمع ...لا استطيع)).

كان القروي عاجزاً كلياً عن تصور نفسه رئيساً للجمهورية ، لان هذا الامر كان بعيداً كل البعد عن تجربته وتصوراته الذهنية .

ان مثل هذه الحياة تقع خارج نطاق فهمه واستيعابه ، فهي حياة بعيدة كل البعد عن خياله وادراكه[١٥] .

الوعي الثقافي :

في العلوم الاجتماعية مدارس مختلفة وخطوط فكرية كثيرة ، واتجاهات تحليلية عديدة ، تسعى جميعها لفهم ظواهر الإنسان والمجتمع كل من زاويته واجتهاده .

واذا كانت النفس البشرية ولواعجها محور اهتمام علم النفس ومدارسه ، فأن ظاهرة الثقافة الإنسانية وتجلياتها اصبحت مدار اهتمام علم الإنسان الثقافي وتياراته، لانها

تجاوز الابعاد العضوية والنفسية للافراد. غير ان الظاهرتين تلتقيان وتتمازجان في وعاء اسمه علم الاجتماع.

وتكمن قوة هذا العلم في سعيه لادراك اسرار ارتباط الابعاد النفسية والثقافية وانعكاسات ذلك الارتباط . ومن ثم توظيف هذا الفهم والادراك في فهم ظواهر التجمع والاجتماع .

ولكن علم الاجتماع علم انتهازي في تحقيق مآربه ، لانه يظهره تارة في توجهات سلوكية فيتجه نحو دراسة الوحدات الصغيرة ليبدو وكأنه علم نفس اجتماعي . وفي تارة اخرى يتعالى نحو التجريد الرمزي والاهتمامات الثقافية فيرتدي لباس علم اجتماع معرفة او انثرولوجيا ثقافية.

ويبدو ان ظاهرة الوعي تحقق طموحات علم الاجتماع، لانها تتجلى في مستويات عديدة وتظهر بابعاد نفسية واجتماعية وثقافية . فتارة وعي فردي نفسي، وتارة وعي اجتماعي او جماعي، وتارة ثالثة وعي ثقافي او معرفي .

ولان سعينا يتجه في الاساس لفهم ظاهرة الوعي المعرفي ، ولأن الثقافة وعاء المعرفة ونمط من سلوك عقلي يظهر في طريقة حياة الناس ، واساليب سلوكياتهم الفردية والاجتماعية . فقد اضحى لزاماً علينا ان نفهم ابعاد الثقافة ونعي عناصرها ومكوناتها، لانها تمثل اعلى مراتب التجريد الرمزي والبعد المعرفي المكتسب اجتماعياً، والذي يؤهل الفرد للتعامل مع الاخرين باسلوب مقبول معترف به .

وقد قدم لنا تالكوت بارسونز افضل عرض لتحليل الثقافة منطلقاً من تعريفها .

(من الممكن فهم الثقافة على انها مركب من الانظمة الرمزية التي عن طريقها يتكيف الناس مع بيئاتهم ويحددون علاقاتهم مع الاخرين في حدود الوضع الإنساني) .

وتتكون الثقافة من وسائل للتعبير والاتصال كاللغات ، ومن مضمون معرفي كالافكار باشكالها المتعددة ، ومن رموز اساسية معبرة كوسائل لاظهار المواقف. ومن مفاهيم اخلاقية (تقديرية) ، ومن محاور رئيسية تدور حولها النظم الثقافية للتميز بين ما هو عقلي وما هو لا عقلي .

حيث يرتبط المحور الاول (العقلي) بالمعرفة ومعايير صحتها وشروط تطبيقها او منفعتها. في حين يشكل المحور الثاني (اللاعقلي) طبقة متخلفة ترتبط بانماط ومجالات

من الرمزية تؤخذ فيها الاعتبارات التي يمكن ادراكها على انها ثانوية وغير لصيقة بالموضوع .

ولكي تكون الصورة اكثر وضوحاً لابد من التمييز بين ما هو (لا عقلي Non-Rational) وما هو (غير عقلي) من عناصر السلوك الإنساني كما قصده بارسونز(١٦) .

فغير العقلي يعني الخروج على معيار من معايير العقل او الانحراف عنه ولذلك فهو يشير الى نمط من الفعل لا الى عنصر من عناصر العقل .

اما (اللاعقلي) فهو وان اشار الى عنصر من عناصر االعقل فأنه يشير في ذات الوقت الى ازدواج النظرة نحو (التعقيل) . مثال ذلك ان خروج آدم من الجنة كان خطيئة سببها رغبته في المعرفة . فالازدواج يبدو هنا في الازدواج بين (الخطيئة والمعرفة) . او بمعنى آخر ان الازدواج تضمن معنيين في ذات الوقت:ان الجنة مكان يعتبر فيه (الجهل سعادة) و (المعرفة خطيئة) . وان المعرفة تعني (الخروج من الجنة) .

ومثال آخر عن التعارض بين العقل واللاعقل نضربه من طبيعة الإنسان كحيوان ثقافي تستدعي تكيفاً مستمراً لظروف البيئة المادية والإنسانية على السواء . ولكن هذا التكيف من ناحية ثانية يناقض سعي الإنسان المتواصل للتطور الابداعي وخلق مفاهيم وقيم ونظم رمزية جديدة وعلى مستويات عدة .

ولعل من المناسب ان نستذكر هنا تميز فرويد بين عمليات اولية وعمليات ثانوية في تحليلاته العقلية عن الكيفيات التي تنظم الامور من قبل الوعي او في الانا .

فالعمليات الثانوية Secondary Process هي القوانين المنطقية التي تخضع لها العمليات العقلية الموجودة في الشعور او في الوعي، وفيما قبل الشعور .

اما العمليات الاولية primary process فان قوانين المنطق لاوجود لها في اللاشعور.ففي اللاشعوراو اللاوعي تجمع المتناقضات دون حرج ، وتستخدم الاضداد وكأنها مترادفات ، ويعتبر (التكيف) أي تكوين وحدات من عناصر لا يمكن اجتماعها معاً، و(الابدال) أي تبديل شيء بشيء آخر ، من اهم القوانين التي تخضع لها العمليات العقلية اللاشعورية او اللاواعية .

ولعلي بعد كل هذا استطيع تحديد العوامل التي تتحكم بظاهرة الوعي كما استطيع ايضاح ذلك على شكل ترسيمه .

١- عوامل بيئية ايكولوجية .
٢-عوامل ثقافية حضارية .
٣-عوامل اجتماعية .
٤-عوامل نفسية سايكولوجية .
٥-عوامل بايولوجية – احيائية .

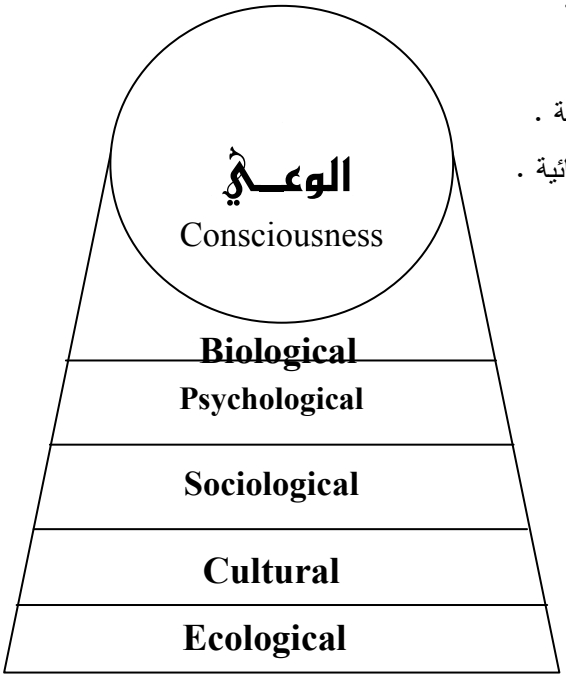

يتضح من هذا ان الوعي المعرفي ليس كينونه Antity، ولكنه نشاط عقلي ذو توجه هادف وادراك ذهني يتميز بذكاء عالٍ وتفكير منطقي، ولا يتضمن أي نمط من انماط الانحراف عن معايير العقل، او عنصراً يحتمل الازدواج في السلوك العقلي (التعقيل) . فهو وحدة ذهنية وخبرة واعية من تذكر وتفكير وادراك .

ولكي لا ندخل في متاهات علم النفس وتفاصيل سايكولوجية دقيقة عن معاني ودلالات مفاهيم التذكر Remember والذاكرة Memory، او الفرق بين الفكر Thought والتفكير Thinking وابعادهم البنائية والحسية والابداعية والمجردة،، او ان تشرح ابعاد الادراك كعملية Perception او كفعل Perceiving . فأننا سنكتفي هنا بالاشارة الى اهمية الرجوع الى تلك التفاصيل، والى اراء بلوم (Bloom) ومخططاته عن سايكولوجية التفكير الإنساني، والاطلاع على مستويات المجال المعرفي العقلي وتصنيف الاهداف السلوكية .

وعموماً فقد ميز بلوم بين فئتين اساسيتين للسلوك العقلي وهما فئة المعرفة Knowledge ،وفئة المهارات والقدرات العقلية Mental Skills التي تتدرج في مستويات خمسة هي (الاستيعاب، التطبيق ، التحليل ، التركيب ، فالتقويم) . وذلك لصلة هذا التصنيف المتدرج في التمييز بين فئات النخب الفكرية ، فيما سنتكلم عنه لاحقا.

((مخطط المجال العقلي ومستوياته الفرعية)) [17]

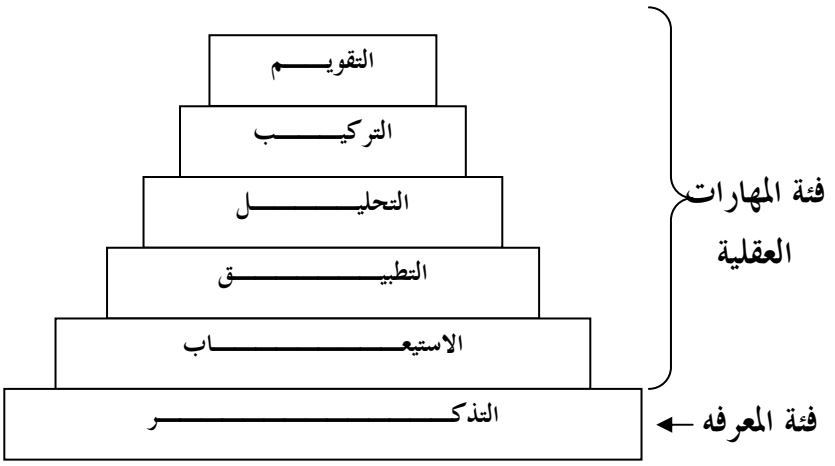

التنمية :

من المواضيع التي اخذت تحتل مساحة كبيره في االتفكير الإنساني وتستاثر باهتمام الكتاب والمفكرين ، موضوع التنمية بابعادها المختلفه ، فقد تزايدت ماحة الاهتمام بهذا الموضوع مع اتساع ماحة الهم الإنساني بمستقبل الجموع البشرية ومستقبل الاجيال المقبله .

ومفهوم التنمية في حد ذاته مفهوم قديم الاستخدام في الادبيات والكتابات النظريه ، الا ان استخداماته جاءت في اكثر من دلاله وصيغه تبعا لتعدد الاتجاهات الفكرية التي تطرقت اليه او تناولت مؤشراته .

ورغم اتساع وتزايد تداول هذا المفهوم في الاوساط الفكرية والثقافيه ،الا ان الغموض ظل يكتنف استخداماته نظرا لاختلاف الفلسفات الفكرية في معالجته ولعدم وجود اتفاق عام على ابعاد ومعاني الاستخدام نظريا وتطبيقيا.

لقد اهتم بعض الكتاب بمفهوم التنمية من زاوية التنظير الفكري منطلقين منطلقين من رؤية تتعامل مع التنمية وكانها عمليه تترادف مع مفهوم التغير الاجتماعي حين يقصد تطوير وتحسين احوال الناس وتوفير الظروف الاجتماعية والاقتصادية الملائمه لهم . وانطلاقا من هذا فان مفهوم التنمية لابد ان يتضمن اشارات الى البرامج الاقتصادية وغير الاقتصادية التي تسعى الى تنظيم المجتمعات المحليه او تنظيم البرامج التي تعنى بعمليه انتقال المجتمع من نمط لاخر (١) وقد ذهب (ليو بولد فون فايس) في المؤتمر الثالث للسوسيلوجيين الذي عقد في امستردام الى ان مصطلح التغير قد حل تماما محل مصطلحي (التطور) و(التنمية).

غير ان استخدام مفهوم التنمية بهذه الدلاله يتعارض مع الواقع ومع دلالات التغير الاجتماعي بالمعنى السوسيولوجي الدقيق ، حيث يدل التغير على حركة تلقائيه عفويه غير مقصوده دون ان يتضمن ابعادا تشير الى رغبات السكان او اراؤهم . وبتعبير آخر فان التغير الاجتماعي عمليه تحدث بشكل تلقائي حتمي سواء اكانت برغبة السكان او بدون رغبتهم زدون تحديد لاتجاه التغير تقدما او ناخرا .فهي عمليه تعني وتشير الى انتقال المجتمعات من حالة لاخرى او من مرحلة لاخرى (١٨)

اما التغير الاجتماعي الهادف او المقصود فانه تغير غائي نتعمد يحدثه الإنسان لتحقيق اهداف وغايات معينه في مجال تقدم المجتمع نحو الاحسن

ومادامت التنمية عمليه تتضمن بعدا هدفيا موجها فانها تتوافق مع مع التغير الغائي الذي تلعب فيه الاراده الإنسانية دورا جوهريا هادفا الامر الذي يتطلب الوقوف على الدوافع والغايات الإنسانية الكامنه وراء تلك الاهداف ووراء عمليات التخطيط والتنمية .

لقد اشار شارل بتلهايم في كتابه (التخطيط والتنمية) الى نوعين من التخطيط يرتبط كلا منهما بنوع النظام الاقتصادي القائم ، فهناك تخطيط يرتبط باقتصاد السوق واخر يرتبط بالاقتصاد الاشتراكي .

وعلى الرغم من ان اهتمامات بتلهايم في كتابه هذا قد انصبت على دراسة المجتمعات الناميه والتي يدعوها (بالمعوقه) الا انه اشار اشارات صريحه الى ارتباط التخطيط بالوعي الاجتماعي وبالتسليح الفكري للشعب والذي يكون فاعلا في النظم

الاشتراكيه_ *كما يرى* _ حيث البناء الاجتماعي فيها لا يضم الا الافراد العاملين المنتجين دون الطفيليين والمستغلين .(١٩)

وسواء اتفقنا مع بتلهايم او اختلفنا معه فاننا وبلا شك سنقف معه في تأكيد دور الإنسان ووعيه الاجتماعي وتاكيد دور القيم والاعراف الاجتماعية في عملية التخطيط وفي نجاح خطط التنمية .

فليس من شك ان للقيم الاجتماعية دورا مهما في اعاقة عمليات التنمية او نجاحها . فاذا كانت القيم جامدة ومتخلفه فان عمليات التنمية ستواجه عقبات عديده يمكن ان تجهض العمليه برمتها .فمن الصعب جدا ان تنعامل لتنمية قطاع الصناعه دون تنمية قطاع التعليم او دون الالتفات الى تحسين قطاع الخدمات والاداره او توعية العاملين في القطاع الصناعي باهمية عامل الوقت .

وقد اشارت دراسات حديثه الى وجود علاقه طرديه موجبه بين التخطيط الاستراتيجي بابعاده الثلاثه وبين تحقيق اهداف التنمية (٢٠)

وهنا يبدو واضحا دور السكان ووعيهم باهمية البرامج التنمويه واهمية اعتماد اطر تنسيق فعاله لتعبئة طاقات الجمهور نحو استيعاب مفاهيم وقيم جديده لتحسن الظروف المعاشيه والاجتماعية بشكل عام .

ويبدو من هذا ان المشاكل الاقتصادية ليست المسؤلة وحدها عن اعاقة عمليات التنمية ، فهناك عوامل وظروف اخرى ربما تكون اشد خطرا وابعد اثرا من الابعاد الاقتصادية . كما ان المشكلات التي تصنف في الغالب كمشكلات اقتصاديه قد تبدو ذات اوجه متعدده متداخله .فالفقر مثلا والذي تعده وثائق الامم المتحده نقص في القدرة الإنسانية يعد واحدا من المشكلات الاجتماعية الى جانب كونه مشكلة اقتصاديه . فقد يبدو في مظهر فقر التكوين (رعاية المعاقين مثلا) وفقر التكوين (ايجاد مؤسسات وفرص عمل وتعليم وغيرها) (٢١) . لذاك لابد من التعامل التكاملي مع ظروف وشروط التنمية مما يؤمن مشاركة الفرد والجماعه في تفعيل شروط الحياة .

لقد تعددت استخدامات مفهوم التنمية في قطاعات ومجالات عديده ، فقد الحقت بكلمة التنمية صفات متعدده اضفت على المفهوم صفة تجزيئيه فيقال مثلا التنمية

الاقتصادية والتنمية الاجتماعية والتنمية السياحيه او السياسيه . وهناك من يقول تنمية بشريه وتنمية انسانيه وتنميه متواصله او مستدامه الخ....

على اننا نفضل استخدام لفظ التنمية بما يشير الى عموميتها واستيعابها لكل الابعاد الاقتصادية والاجتماعية والقيميه والثقافيه والسياسية التي تلعب دورا في حياة الإنسان . فهي تنمية بشريه تتمحور حول الإنسان وللانسان وبالإنسان ومن اجل الإنسان .

واذا كانت ادبيات التنمية البشرية قد عرفتها في عبارة موجزه بانها ،، توسيع خيارات الناس ،، فلا سبيل الى ترجمة هذا المفهوم الى واقع يستجمع كل البشر ولا يستبعد ضعفائهم ، الا بصدور خيارات الناس عن قيم اخلاقيه واجتماعيه ووعي عميق بشروط ومتطلبات الحياة المجتمعيه . (٢٢)

وقد كان لاهتمام الامم المتحده ووكالاتها المتعدده باصدار العديد من تقارير التنمية البشرية دورا محفزا في حفز ومساعدة سياسات وبرامج التنمية ووكالاتها في العديد من البلدان الناميه التي اهتمت بدورها باصدار التقارير الدوريه ومنها تقرير التنمية الإنسانية العربيه الذي كان اول اصدار اقليمي للبلدان العربيه ،اذ شخص العديد من الانجازات فضلا عن مجالات القصور في البنى المؤسسيه العربيه والتي لازالت تعيق وتحد من نجاح عمليات التنمية كنواقص الحريه وتمكين المراه والقدرات المعرفيه .

ومن الجدير بالذكر هنا ان تقرير التنمية الإنسانية العربيه والذي صدر آخر تقرير منه مطلع عام ٢٠٠٥ لمناقشة الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الوطن العربي لعام ٢٠٠٤ قد استند في منطلقاته على مؤشرات التنمية البشرية المبني على اربعة متغيرات هي :

العمر عند الولاده ، معرفة القراءه والكتابه عند البالغين، معدل الالتحاق بالمؤسسات التعليميه ، نصيب الفرد من الناتج المحلي الاجمالي. اضافة الى خيارات اخرى تضم (حريات الإنسان،حقوق الإنسان ، المعرفه وعدد من الحريات الاخرى الضروريه لرفاه الإنسان)(٢٣)

ان اعتماد التنمية البشرية المستدامة بكل ما تشمله من مفاهيم وقضايا وما تستدعيه من آليات ووسائل تطبيقيه ، اصبح سياقا عاما واطارا تعتمد عليه العديد من اقطار العالم ومنها اقطار الوطن العربي لبلورة رؤى انمائيه تحقق الاهداف المنشوده في المجالات

كافه (الوضع الثقافي ،وواقع الموارد البيئيه ، الجوانب المؤسسيه ، العلم والتكنولوجيا) . ويمكن تلخيص تلك المؤشرات بما يلي :

١- تأمين حاجة الاجيال الراهنه دون الاضرار بامكانات الاجيال القادمه على تأمين حاجاتها.

٢- المحافظه على التوازن البيئي وذلك بمكافحة تلوث البيئه وتخريبها والسعي لاستخدام رشيد للموارد ونطويرها بصوره بناءه تحفظ حق الاجيال القادمه بالافاده السليمه منها

٣- العنايه بالغايات الاجتماعية واهمها اجتثاث الفقر والقضاء على البطاله وتوفير فرص عمل متكافئه للمواطنين ونحسين توزيع الدخل القومي وتوسيع خيارات الناس بهدف تحسين مستوى معيشتهم وتطوير نوعية حياتهم

٤- تأكيد قيم الحريه وحقوق الإنسان والديمقراطيه بهدف احترام كرامة الإنسان وتمكينهم من المشاركة في رسم مستقبلهم في عملية صنع القرار في بلادهم وتوفير الوسائل والاليات الكفيله بادرارة ديمقراطيه وشرعيه للحكم وارسائه على سلطة القانون والمؤسسات المنتخبه والدستوريه. ٢٤)

الوعي بالتنمية :

نستنتج من كل ما سبق ان الوعي يشكل اطارا مرجعيا يستند اليه الفرد والجماعه في التعامل مع الوقائع والظواهر الخارجيه وفي التعامل مع الطرف الاخر انسانا وبنى ومجتمعات .

ولاشك ان الوعي بكل مستوياته وانواعه انما يتحدد بمجموعه من القيم والمعايير والاعراف التي تؤثر في الفرد والجماعه . فالوعي اذن شعور ينتاب الفرد والجماعة ويجعلها تدرك حقيقة مركزها ودورها ومستقبلها ويدفع بها لتدارك الاخطار المحيطة ورسم البرامج الكفيله لتحقيق الاهداف والطموحات .

واذا شئنا ان نقرر ان الوعي بالتنمية يعني ادراك لاهمية التنمية وضروراتها . فماذا عن تنتمية الوعي ؟ وهل ان تحقيق اهداف التنمية رهين بشروط الوعي الاجتماعي ، ام ان الوعي في حد ذاته هدفا من اهداف التنمية ؟

لقد ناقش سي رايت ميلز في كتابه الخيال السوسيولوجي تلك العلاقة باسهاب وقدم لنا العديد من البيانات والاقتراحات والمعالجات النظرية والتطبيقية منطلقا من بيان العناصر التي تتالف منها التنمية الاجتماعية وموقف المجتمع من التاريخ الإنساني والوسيله التي يتغير فيها المجتمع ، وعلاقة ذلك بالطبيعة البشرية .

لقد توصل ميلز الى ان فهم مايدور في أي ميدان من ميادين العمل الثقافي والفكري يجب فهمه في ظل ظروف السياق الاجتماعي ذاته ، وان غاية العلم الاجتماعي هي التنبؤ بالسلوك الإنساني والسيطرة عليه ،وان عبارة الهندسه البشرية عبارة غير محددة المعنى لانها لاتميز بين السيطرة على المجتمع والسيطرة على الطبيعه . مستنتجا ان اهم االافكار التي ورثها علماء القرن العشرين الاجتماعيون عن فلاسفة عصر التنوير هي (دور العقل في شوون الإنسان وفكرة الفرد الحر من حيث هي قاعدة العقل الحر) والا ان هاتين القيمتين (العقل والحريه) تتعرضان لخطر جلي ولكنه خطر معقد وماكر .

ان عقلنة المجتمع بشكل متزايد والتناقض بين العقلانيه والعقل وانهيار تلاقي العقل والحريه هي السر وراء ظهور انسان مع العقلانيه ولكنه بلا عقل . هكذا يرى ميلز (٢٥).

ولكن ومنذ اعلان الحق في التنمية لعام ١٩٨٦ تخطى مفهوم التنمية الزياده المستمره في المؤشرات الاقتصادية الى كافة الجوانب والمجالات بحيث يشمل البشر ككل وفي جميع الجوانب المتعلقه بالحقوق الاساسيه حتى اصبح مفهوم التنمية يعني تمكين الإنسان من الحصول على حقوقه كافه واصبح الإنسان غاية التنمية ووسيلتها في آن واحد. (٢٦)

المثقفون والمجتمع :

الثقافة وعاء المعرفة او نوع من المعرفة ، ولا يمكن ادراكها الا من خلال سلوك الناس وتصرفاتهم وتعاملهم مع الحوادث والاشياء ، وهي صفة (Attribute) تطلق اطلاقاً نسبياً لتشير الى مجموعة من الناس في اشارة للمتعلمين تمييزاً لهم عن غير المتعلمين او انصاف المتعلمين والأميين. وقد يقصر استخدامها على فئة محددة فيقال النخب الثقافية او الطبقة المثقفة.

قد تعترض سبيل الدارسين مشكلة تتمثل في كيفية التعرف على نوعية وما هيـــة الثقافة في عقول الناس ولاسيما ان خلطاً قد يستخدم كثيراً في عدم التمييز بين المتعلمـــين والمثقفين .

ويبدو لنا ان طريقة انتظام وتراتب عناصر السلوك العقلي والمعرفي بما يمـــنح انتظام تلك العناصر شكلاً بنائياً متناغماً Harmonic يـــنعكس علـــى اســـلوب التفكيـــر والتعامل مع الكيانات والكائنات والظواهر هو الطريقة الـــصحيحة للتعامـــل مـــع هـــذا الموضوع .

فالتناغم الهارموني للبناء العقلي شرط ليكون التفكير منطقي منظم مستند علـــى مجموعة من أسس ومبادئ مستدخله Internalization في الذات العقلية استدخالاً تربوياً ينطلق من استحالة تأكيد الشيء ونقيضه في آن واحد (عنصر لا عقلـــي) . وان لاشـــيء يحدث من لا شيء . وان لكل علة معلول ولكل حادث سبب ومسبب [٢٧] .

وهنا لابد ان نؤكد على التمييز بين المتعلمين والمثقفين . فالمتعلم هو من يكـــون ممتلكاً لذاكرة تسمح له بأختزان مجموعة من المعلومات المستقاة اوتوماتيكياً من مؤسسات تعليمية يوظفها غالباً في خدمة مصالحة في العيش والارتزاق أو في خدمة مصالح الطبقة التي ينتمي اليها . ولكنه غير قادر على تجاوز مستوى النقل النقدي (او مستوى المعرفـــة حسب تصنيف بلوم)، ومن ثم فأنه غير قادر على اكتشاف القوانين العقلية والمنطقية التي تتحكم بتلك العلاقات ، وليست له القدرة على التحليل والتركيب والتقويم (حسب تـــصنيف بلوم)، فيكون بذلك متعلماً غير مبدع، لان وسيلته لدخول البناء الثقافي والمعرفي تـــستند على قابلية الخزن والحفظ والاستذكار دون ذلك[٢٨] .

وعلى أية حال فأن هذا الخلل غالباً ما يكون نتاج لنظام تعليمي تربوي قاصـــر يعمل على تكريس وانتاج عوامل التخلف بتركيزه على التلقين والحفظ والجمود الفكـــري، وتعزيز نظم التسلط المدرسي، وقيم الشكل والمظهرية، وتشجيع سلوك اللامبـــالاة وعـــدم الحرص، واعتماد صيغ الاستغراق في الجزيئات وتجزئة العلوم والمعارف دون اختبـــار الافكار النظرية وتنميتها واقعياً. الامر الذي يترتب عليه تزييف الوعي بالواقع.

ويبدو لي ان نظمنا التربوية والتعليمية والجامعية لازالت تـــدور ضـــمن حلقـــة التخلف المعرفي، ولازالت مشبعة بالشروط والظروف والاداءات التي تعمل على تكريس

عوامل انتاج واعادة انتاج التخلف الفكري، وتزييف الوعي المعرفي (مناهجاً ووسائل وادوات) . ولا زالت تشجع فرص انتاج ادوات تعليمية تسعى الى التطلع السلطوي دون تطوير قابليتها المعرفية فكرياً وعملياً .

ولان التخلف يعيد انتاج التخلف دائماً .فاننا امام مشكلة كبرى ، ومستقبل كارثي .

فقد اشارت بعض الاحصاءات العالمية الى ان معدل قراءة الفرد العربي على مستوى العالم هو ربع صفحه ، بينما في امريكا (١١) كتابا ، وفي بريطانيا (٧) كتب . في حين لا تتجاوز قراءة القارىء العربي سنويا النصف فقط .(٢٩)

ولعل المناسب الاشارة هنا الى ان الخلل ابتدأ بالظهور في المستويات الدنيا من السلم التعليمي. ولما لم تكن هناك سياسيات رشيدة لايقاف زحف التخلف ومسلسل التدهور الفكري والمعرفي وفي ظل ظروف عززت تلك السياسات فقد تصاعد الخلل حتى بلغ اعلى مراتب السلم التعليمي.

ولكن اين الحل ؟

للتخلف المعرفي واعادة انتاجه عوامل واسباب عديدة بعضها داخلي والبعض الاخر خارجي . ولا مجال للدخول في تفاصيل هذا على هذه الرقعة الصغيرة من الوقت والبحث . ولكن العمل على أحداث تغيرات هيكلية جوهرية في النظام التعليمي وايقاف عجلة التدهور ومن ثم تطوير الواقع المعرفي والفكري لعوامل انتاج الوعي المعرفي بالتواصل مع الاخرين ولاسيما اولئك الذين سبقونا تكنولوجياً ومعرفياً ، يظل خطة عامة يجب الاعتماد عليها في رسم السياسيات التعليمية .

ومثل تلك الاجراءات لا تتم دون فرز عوامل وادوات التخلف الكامنة في البنى التعليمية والاوساط الفكرية، واعادة النظر بالمناهج والطرق والوسائل التعليمية، وربط المناهج والادوات باهداف ومصالح المجتمع،وتحقيق التوازن بين المدخلات التعليمية والمخرجات الفكرية والتنسيق المتوازن بين المجالات الفكرية والمهنية والتطبيقية، وتوظيف المعرفة من اجل اكتشاف قوانين الطبيعة والمجتمع . سوف يظل هو الاسلوب والطريق القويم نحو بناء برامج تنموية مستقبلية تتعامل مع المضمون والجوهر وليس مع المظاهر الشكلية او الارقام الحسابية .

واذا حاولنا البحث عن جذور القيود والعقبات التي لازالت تحد من انطلاقتنا وتلازم تعويق عمليات التقدم، فسنجد ان ثمة ازمة اخلاقية وانساق ومعتقدات ورموز لازالت تسعى لتأكيد دعائمها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ولازالت تلعب دوراً مهماً في تشكيل وعي زائف وترسيخ عوامل التخلف المعرفي وتحجيم الواقع المجتمعي لصالح مصالحها .

وبخلاف هذا فأن عناوين فارغة المضمون، ومظاهر شكلية تراقص اعمدة الصحف والاعلام، ستظل تحكم قبضتها على موازيين العمل والانتاج، وستظل تزودنا بقراءات خاطئة تدفعنا للمراوحة في مواقعنا ان لم نقل تتراجع الى الوراء فيما يجري العالم حولنا مسرعاً .

فالعملة الرديئة تطرد العملة الجيدة .

رغم ان سوق اللغة والفكر والثقافة ستظل عصية على أشباه المثقفين .

المصادر والهوامش :

١-عبد المجيد نشواتي، علم النفس التربوي ، دار الفرقان ، عمان ، ١٩٨٥، ص ص ١٦٣-١٦٧ .

٢-كمال بكداش، نظريات في علم النفس ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ، ٩٨٦ ،ص ٦١-٦٣ .

3-Thimascheff N. S. and Theoderson , sociological theory . 4th edition Random house N.Y.1976 , p. 106 .

٤-متعب مناف جاسم ، التخطيط وخلفيته السلوكية ، منشورات جامعة قار يونس ، بنغازي، ١٩٧٧ ، ص٩.

5-Weber . M. "Economic and society" (ed.) by Guenther roth and Claus Wittch . Bedminster press N.Y. , 1988 , p.4 .

٦-عبد الباسط عبد المعطي ، الوعي التنموي العربي ، معهد الانماء العربي ، بيروت ، ١٩٨٩ ، ص١٧ .

٧-عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، دار الجيل ، بيروت ، بدون سنة ، ص١٤٠-١٤٢ .

٨-احمد زكي بدوي ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٨ ، (ص٨١ و ص٣٨٣) .

٩-حاتم الكعبي ، السلوك الجماعي ، مطبعة الديوانية الحديثة ، الديوانية ، ١٩٧٣ ، ص٧٠-٧٢.

١٠-عدد من الباحثين السوفيت ، نظرية الأدب ، ترجمة د. جميل نصيف التكريتي، وزارة الأعلام ، ١٩٨٠ ، ص١٥٣-١٥٩ .

١١-غيورغي غاتشف ، الوعي بالفن ، ترجمة نوفل نيوف ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٠ ، ص١٧ .

١٢-احمد الخشاب ، التفكير الاجتماعي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص٤٦٨-٤٧٥ .

١٣-فاخر عاقل ، معجم علم النفس ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص٢٨.

١٤-سيجموند فرويد ، معالم التحليل النفسي ، ترجمة محمد عثمان نجاتي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ص ٧٢-٨٨ .

١٥-كافيين رايلي ، الغرب والعالم ، ترجمة عبد الوهاب المسيري وهدى عبد السميع، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٥ ، ص٨٠ .

١٦-تالكوت بارسونز ، أثر التكنولوجيا في الثقافة، المجلة الدولية لعلم الاجتماع ، العدد السادس ، السنة الثانية ، اليونسكو ، ١٩٧٢ ، ص ص ٨-٩ .

١٧-عبد المجيد نشواتي ، مصدر سابق ، ص٧٣ .

١٨-عبدالهادي الجوهري، واخرون، دراسات في التنمية الاجتماعية ، القاهره ، مكتبة نهضة الشرق ، جامعة القاهره/١٩٨٢،ص٧

١٩-اسماعيل صبري عبدالله، دار المعارف بمصر ، القاهره ،١٩٦٨،ص٧ -١١

٢٠-رائد صبار لفته ،العراق الجديد وسبل التخطيطالاستراتيجي الى التنمية ، مجلة النبأ ، العدد ٧٠ ، دار المستقبل للثقافه والاعلام ، بغداد ، ايار ٢٠٠٤ص ٧٠-٧٨

٢١-كريم محمد حمزه ، بعض ملامح المجتمع الناهض ، في نحو مجتمع ناهض متكافل، بيت الحكمه بغداد ٢٠٠٢ ، ص ٢٠٨

٢٢- مجلس وزراء الشوون الاجتماعية العرب ، التقرير الاجتماعي العربي ، الاصدار الاول ، جامعة الدول العربيه ، القاهره، ٢٠٠١، ص ٥

٢٣-هناء ابراهيم الخفاجي ، التنمية الإنسانية العربية ، مجلة دراسات اجتماعيه ، العدد ١٦ ، بيت الحكمه ، بغداد خريف ٢٠٠٢ ص ٩٤-١٠٩.

٢٤-مهدي الحافظ ، نحو رؤيه انمائيه للعالم العربي ، منظمة اليونسكو ، كتاب في جريده ، العدد ٨١، ٢٠٠٥/٥/٤، ص ٥

١- سي رايت ميلز ، الخيال السوسيولوجي، ترجمة صالح جواد كاظم ،دار الشؤون الثقافيه ، بغداد ،١٩٨٧،ص١٢٢،١٦،١٥، ٢٤٤،٢٤٢،١٦٦،

عزيز جبر شيال ، التنمية الاقتصادية وحقوق الإنسان ، مجلة اوراق عراقيه ، العدد ٢ نيسان ٢٠٠٥ ، مركز الفجر للبحوث والدراسات العراقيه ، ٢٢- ٢٥.

٢٧- فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، عالم المعرفه ، الكويت، ١٩٨٧، ص ٦

٢٨- عبدالعاطي عبد المعطي ، مصدر سابق ، صص ١٢٨-١٣١

٢٩- صحيفة المشرق البغداديه، العدد ٤٠٢، الصفحه الاخيره ، ٢٠٠٥/٥/٩